مجلة كلية الدعوة الإسلامية

مَجَلَّةٌ - إِسْلَامِيَّةٌ - ثَقَافِيَّةٌ - جَامِعَةٌ - مُحْكَمَةٌ

تَصْدُرُ سَنَوِيًّا عَنْ

كُلِّيَّةِ الدَّعْوَةِ الإِسْلَامِيَّةِ

العددان الواحد والثلاثون والثاني والثلاثون

لسنة 1439 – 1440 الهجرية الموافق: 2017 – 2018 الميلادية

مسألة كسب الأفعال في عقيدة أهل السنة

د. عبد العالم محمد القريدي
أستاذ مساعد بجامعة الزاوية - ليبيا

تُعَدُّ مسألةُ الكَسْبِ مَسْأَلَةً سَلَفِيَّةً؛ لأنَّ أوَّلَ مَنْ أظهرَها هو أبو الحَسَنِ عليُّ ابنُ إسماعيلَ الأشعريُّ[1]، المولودُ سنةَ 260هـ؛ أيْ: في القرنِ الثالثِ الهجريِّ، وهو مِنَ القُرونِ المَشْهودِ لها بالفَضْلِ[2]، وقامَ بِعَرْضِها بأُسلوبٍ عَقْليٍّ في كتابِهِ **اللُّمَع في الرَّدِّ على أهْلِ الزَّيْغِ والبِدَعِ**[3]، مُسْتقِيها مِنَ اللَّفظِ القرآنيِّ، قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[5]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾[6]، ولأنَّها مِنْ أغْمضِ المَسائِلِ الكَلاميَّةِ ضُرِبَ بها المَثَلُ،

(1) ينتهي نسب أبي الحسن الأشعري إلى الصَّحابي الجليل أبي موسى الأشعري [**الأعلام**، للزركلي: خير الدين بن محمود، دار العلم للملايين، ط15، بيروت، 2002م، 4/ 263].

(2) روى الترمذي قوله ﷺ: «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يأتي من بعدهم قوم يتسمّنون ويحبون السِّمَنَ يعطون الشهادة قبل أن يَسْأَلُوها» [**سنن الترمذي**، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرين، دار إحياء التراث العربي- بيروت، د. ت، 4/ 500 برقم 2221].

(3) يُنظر: ص69 من الكتاب بتحقيق: د. حمودة غرابة، ومن نشر: المكتبة الأزهرية للتراث بالقاهرة سنة 1993م.

(4) سورة البقرة، من الآية: 286.

(5) سورة الروم، الآية: 41.

(6) سورة النساء، الآية: 112.

فقِيلَ: أَخْفَى مِنْ كَسْبِ الأشعريِّ[1]، وقد لاقَتْ هذهِ المَسْألةُ قَبُولاً بينَ عُلماءِ العَقائِدِ عندَ أهلِ السُّنَّةِ قاطِبَةً، لاسيَّما في مَناراتِ العِلْمِ المُختلفةِ بالمَشْرقِ الإسْلاميِّ، كالأزْهَرِ بِمِصْرَ، ومَدارِسِ مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ، ودارِ تريمَ اليَمَنيَّةِ، وجامِعِ بَنِي أُمَيَّةٍ بالشَّام، والمَدْرَسَةِ المُسْتَنْصِريَّةِ بالعِراقِ، وغَيرِها، كَما لاقَتْ قَبُولاً بالمَغْرِبِ الإسْلاميِّ، كالزَّيْتُونَةِ بِتُونُسَ، وجامِعَةِ القَرَوِيينَ بِفَاسَ، والمَحاضِرِ العِلْمِيَّةِ بمُورِيتانِيا، والجامِعَةِ السُّنُوسِيَّةِ بِلِيبيا، وزَوايا العِلْمِ بالجَزائِرِ، وغَيرِها؛ ذلكَ لِمَا أسْهَمَتْ بِهِ مِنْ تَفْسيرٍ لِمَسائِلِ التَّوْحيدِ، مِمَّا جعَلَ هذهِ النَّظَريَّةَ تَكُونُ في عَقيدَةِ أهْلِ السُّنَّةِ لَبَناً سائِغاً بينَ فَرْثٍ ودَمٍ، ولم يُنْكِرْها إلَّا الجَاهِلُ بِها.

- **الكَسْبُ لُغَة:**

جاءَ في مُعْجَماتِ اللُّغَةِ: كَسَبَ: أَصابَ، واكْتَسَبَ: تَصَرَّفَ واجْتَهَدَ، والكَواسِبُ: الجَوارِحُ[2]، وكَسَبَ الإثْمَ، واكْتَسَبَهُ: تَحَمَّلَهُ[3]، ويَقولُ صَاحِبُ الأساسِ: «ومِنَ المَجازِ: كَسَبْتُ خَيْراً، واكْتَسَبْتُ شَرّاً»[4].

- **الكَسْبُ اصْطِلاحاً:**

عَرَّفَهُ الإمْامُ الأَشْعَرِيُّ بِقَولِهِ: «مَعْنَى الاكْتِسابِ هوَ أنْ يَقَعَ الشَّيْءُ بِقُدْرَةٍ مُحْدَثَةٍ؛ فَيَكُونُ كَسْباً لِمَنْ وَقَعَ بِقُدْرَتِهِ»[5]، وَحَدَّهُ الإمْامُ اللَّقانِي بأَنَّهُ: اكْتِسابُ

(1) يُنظر: **هداية المريد لجوهرة التوحيد**، للقاني: إبراهيم بن إبراهيم (ت. 1041هـ)، تحقيق: الحبيب بن طاهر وفوزي بالثابت ومحمد الرايس، دار مكتبة المعارف، ط1، بيروت: 2011م، ص170.

(2) يُنظر: **القاموس المحيط**، للفيروزآبادي: مجد الدين محمد بن يعقوب (817هـ)، تحقيق: محمد الإسكندراني، دار الكتاب العربي، بيروت: 2010م، ص131.

(3) يُنظر: **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي**، للفيومي: أحمد بن محمد المُقري (ت. 770هـ)، المكتبة العلمية، بيروت: د. ت، 2/ 532.

(4) **أساس البلاغة**، للزمخشري: جار الله أبي القاسم محمود بن عمر (ت. 538هـ)، دار الفكر، بيروت: 2000م، ص543.

(5) **مقالات الإسلاميين**، لأبي الحسن الأشعري: علي بن إسماعيل (ت. 330هـ)، تحق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الحداثة، ط2، د. م 2/ 199.

العَبْدِ[1]، لأفْعالِهِ الاخْتِيارِيَّةِ انْبِعَاثاً وإرادَةً[2]، واخْتِياراً[3]، كَمَا حُدَّ بأنَّهُ: مُقارَنَةُ قُدْرَةِ العَبْدِ لِذلكَ الفِعْلِ عِنْدَ مَيْلِهِ لَهُ[4]، وَحُدَّ أيْضاً بأنَّهُ: الانْبِعاثُ النَّفْسِي إلى التَّلَبُّسِ بالفِعْلِ[5]، وعَرَّفَهُ الإمْامُ الصَّاوِي بأنَّهُ: تَعَلُّقُ قُدْرَةِ العَبْدِ وإرادَتِهِ بالفِعْلِ، مَيْلاً مِنَ العَبْدِ وتَوَجُّهاً للفِعْلِ[6]، أيْ: أنَّ الفِعْلَ يَقَعُ مُقارِناً لِقُدْرَةِ العَبْدِ وإرادَتِهِ مِنْ غَيْرِ أنْ يَكونَ مِنْها تَأْثِيرٌ ومَدْخَلٌ في وُجُودِهِ، سِوَى كَوْنِ العَبْدِ مَحَلّاً للفِعْلِ[7]، لا خَلْقاً لَها وإيجاداً.

- **اللهُ هو خالِقُ الأفْعالِ وفاعِلُها عَلَى الحَقِيقَةِ:**

فالخالِقُ الوَحِيدُ لِهذا الكَوْنِ وما فيهِ مِنْ حَرَكَةٍ وسُكُونٍ هو اللهُ وَحْدَهُ، فهو المُنْفَرِدُ بالخَلْقِ والإيْجادِ، قَالَ تَعالَى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[8]، وَقالَ

(1) العبد في اصطلاح العقيدة هو كُلّ مخلوق يصدر عنه فعل اختياري، فيشمل حنين الجذع له صلّى الله عليه وسلم ومشي الشجر وتسبيح الحَصَى [يُنظر: **شرح الناظم على الجوهرة (هداية المريد لجوهرة التوحيد)**، للقاني: برهان الدين إبراهيم بن إبراهيم (ت. 1041هـ)، تحقيق: مروان حسين عبد الصالحين البجاوي، دار البصائر، ط1، القاهرة: 2009م].

(2) وبهذه الإرادة الموهوبة منه سبحانه ينبعث العبد إلى اختيار أفعاله [يُنظر: **كبرى اليقينيات الكونية وجود الخالق ووظيفة المخلوق**، محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، ط6، د. م: 1399هـ، ص134].

(3) اختيار العبد هو قصد الفعل والميل إليه [يُنظر: **شرح الناظم على الجوهرة**، للقاني، ص562].

(4) يُنظر: **العقد الوحيد في إيضاح السؤال عن التوحيد**، للدردير: شهاب الدِّين أحمد بن محمد (ت. 1201هـ)، تحقيق: أمان عبد المؤمن قحيف، دار الحضارة، طنطا-مصر: 1998م، ص56.

(5) **كبرى اليقينيات الكونية وجود الخالق ووظيفة المخلوق**، محمد سعيد رمضان البوطي، ص133.

(6) يُنظر: **كتاب شرح الصاوي على جوهرة التوحيد**، للصاوي: أحمد بن محمد (ت. 1241هـ)، تحقيق: عبد الفتاح البزم، دار ابن كثير، ط5، دمشق- بيروت: 2007م، ص241-244.

(7) **شرح الناظم على الجوهرة**، للقاني، ص562. ويُنظر: **تهذيب شرح السنوسية أم البراهين**، تصنيف: سعيد عبد اللطيف فودة، دار البيارق، ط1، الأردن: 1998م، ص109. ويُنظر: **تهذيب واختصار وشروح السنوسية أم البراهين**، تهذيب: عمر عبد الله كامل، دار المصطفى، ط1، القاهرة: 2005م، ص139.

(8) سورة الزمر، من الآية: 62.

سُبْحانَهُ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾[1]، وقالَ تَعالَى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[2][3]، وقالَ تَعالَى: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾[5]، فالأفْعَالُ في هذا الكَوْنِ «هي مَخْلُوقَةٌ للهِ تَعالَى مَكْسُوبَةٌ للعِبادِ؛ لأنَّ كلَّ مَنْ وَقَعَ مِنهُ الفِعْلُ بِقُدْرَةٍ قَديمَةٍ فَهُوَ فاعِلٌ خالِقٌ، وَكُلَّ مَنْ وَقَعَ مِنْهُ الفِعْلُ بِقُدْرَةٍ مُحْدَثَةٍ فَهُوَ مُكْتَسِبٌ»[6]، ولا يَتَرَتَّبُ عَنْ كَوْنِهِ تَعالَى خالِقاً لأفْعالِ العَبْدِ أنْ يَكونَ مُتَّصِفاً بها فَيَكونُ سُبْحانَهُ آكِلاً وشارِباً وقائِماً وقاعِداً، فَتَعالَى اللهُ عَنْ ذلكَ؛ إذ الفَرْقُ بَيِّنٌ بَيْنَ مَنْ خَلَقَ الفِعْلَ وبَيْنَ مَنْ فَعَلَهُ، فاللهُ خالِقُ الفِعْلِ والعَبْدُ فاعِلٌ لَهُ؛ أيْ: مُتَّصِفٌ بِفِعْلِهِ، «وَإنَّمَا يُسْنَدُ الفِعْلُ حَقِيقَةً إلَى مَنْ قامَ بِهِ، لا إلَى مَنْ خَلَقَهُ وَأوْجَدَهُ، أَلَا تَرَى أَنَّ الأبْيَضَ مَثَلاً هُوَ الجِسْمُ وإنْ كانَ البَيَاضُ القائِمُ بِهِ مِنْ خَلْقِهِ تَعالَى وإيجادِهِ»[7]، فَلا يَكُونُ فِعْلُ العَبْدِ لأفْعالِهِ سِوَى علَى سَبيلِ الاتِّصافِ لَيْسَ إلَّا[8].

---

(1) سورة الفرقان، من الآية: 2.

(2) سورة الصافات، الآية: 96.

(3) يرى السلفيون أنَّ (ما) في الآية موصولة؛ إذ التقدير: والله خلقكم والذي تعملونه [يُنظر: **شرح العقيدة الطحاوية**، لأبي جعفر الطحاوي، لابن أبي العز الدمشقي: علي بن علي (ت. 792هـ)، تحقيق: عبد الرحمن فهمي الزواوي، دار الغد الجديد، ط1، القاهرة: 2009م، ص356]، والصحيح عند أهل السُّنة أنَّها مصدريَّة، فالتقدير: والله خلقكم وعَمَلَكُمْ [يُنظر: **تفسير القرطبي**، أبي عبد الله محمد بن أحمد (ت. هـ)، دار الريان للتراث، د. م، د. ت 8/ 5540] ويؤيده قوله صلى الله عليه وسلم: «إن الله خالق كلَّ صانعٍ وصنعته» [يُنظر: **شعب الإيمان**، للبيهقي: أبي بكر أحمد بن الحسين (ت. هـ)، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت: 1410هـ، 1/ 209]، ومن السلفيين مَن جوَّز في (ما) الأمرين، مصدريةً وموصولةً [يُنظر: **شرح العقيدة الواسطية لابن تيمية**، محمد بن صالح العثيمين، دار ابن الجوزي، ط4، السعوديَّة: 1427هـ، ص433].

(4) سورة فاطر، من الآية: 3.

(5) سورة القمر، الآية: 49. أما قوله تعالى: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت 17]، فمعناه: تكذبون، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ﴾ [المائدة 110]، فمعناه: تُصوِّرُ، وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [القصص 15]، فمعناه: من تزيينه [يُنظر: **شرح الناظم على الجوهرة**، للقاني، هامش ص573].

(6) **مقالات الإسلاميين**، لأبي الحسن الأشعري، 2/ 196.

(7) **هداية المريد لجوهرة التوحيد**، للقاني، ص163.

(8) يُنظر: السابق، ص175.

• **الإنْسانُ مُكْتَسبٌ لأَفْعَالِهِ الاخْتِيارِيَّةِ**[1]، بِمُباشَرتِهِ لَهَا:

إنَّ اللهَ تَعالَى يُسَمَّى بِتَخْليقِها وإيجادِها وإحْداثِها خالِقاً، ويُسَمَّى العَبْدُ بِكَسْبِها وبِمُباشَرتِها وبالاتِّصافِ بِها فاعِلاً لَها علَى سَبِيلِ المَجازِ لا الحَقِيقَةِ؛ «لأَنَّ الفاعِلَ الحَقِيقيَّ هو اللهُ جَلَّ وعَلَا، وبِكَسْبِ العَبْدِ لَها يَصِيرُ مُطِيعاً أوْ عاصِياً»[2]، قالَ تَعالَى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾[3]، وقالَ تعالَى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[4]، أيْ: ما رَمَيْتَ إيْجاداً حِينَ رَمَيْتَ كَسْباً، ولَكِنَّ اللهَ رَمَى إيْجاداً[5]، يَقولُ صاحِبُ الجَوْهَرَةِ[6]:

فَخالِقٌ لِعَبْدِهِ وَما عَمِلْ مُوَفِّقٌ لِمَنْ أرادَ أنْ يَصِلْ

(1) وكذلك أفعال العبد المُكره عليها؛ لأنَّها اختيار تنفيذ أوامر المُكرِه، رَغْم ارتفاع الإثم بالإكراه [يُنظر: **كتاب شرح الصاوي على جوهرة التوحيد**، للصاوي، ص240]، ومثل الأفعال الاختياريَّة في المسألة: النمو والهزال والهضم وهي أفعال غير مشعور بها، والصِّحَّة والمرض والنوم واليقظة، وهي أفعال مشعور بها [**شرح الناظم على الجوهرة**، للقاني، هامش ص540-542].

(2) **كتاب التمهيد لقواعد التوحيد**، للامشي: أبي الثناء محمود بن زيد (عاش في أواخر الخامس وأوائل السَّادس الهجري)، تحقيق: عبد المجيد تركي، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت: 1995م، ص97.

(3) سورة الأنفال، من الآية: 17.

(4) سورة الأنفال، من الآية: 17.

(5) يُنظر: **كتاب شرح الصاوي على جوهرة التوحيد**، للصاوي، ص241، ويذهب السلفيون إلى أن معناه: وما أصبتَ إذ حذفتَ ولكن الله أصاب؛ لتوهّمهم أنَّ القائم بالفعل متَّصف به، فيطرد على قولهم: وما زنيتَ إذ زنيتَ ولكن اللَّه زنى، وهو باطل [يُنظر: **شرح العقيدة الطحاوية**، لأبي جعفر الطحاوي، لابن أبي العز الدمشقي، ص355]، لكن أهل السُّنة يقرِّرون أنَّه: لا يلزم من خلقه تعالى للأفعال التلبُّس بها؛ إذ التلبُّس لا يكون إلَّا من العبد، وهو الكَسْب، أمَّا اللَّه فهو الخالق لأفعال مخلوقاته جميعاً على الحقيقة، قال تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ﴾ [النساء: 78]، [يُنظر: **كتاب شرح الصاوي على جوهرة التوحيد**، للصاوي، ص229]، لكن تأدُّباً مع اللَّه لا يُنسب الشرّ إليه كسباً وإن كان منسوباً إليه تعالى إيجاداً، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾ [النساء: 78]. يُنظر: **الجوهر الفريد في علم التوحيد**، عبد الهادي إدريس أبو أصبع، دار ومكتبة بن حمودة بزليتن ومكتبة المعارف بنغازي، ط2، 2005م، ص113].

(6) **كتاب شرح الصاوي على جوهرة التوحيد**، للصاوي، ص231.

وَمِنْ عَظيمِ قُدْرَتِهِ تَعالَى إيجادُ الفِعْلِ عِنْدَ قُدْرَةِ العَبْدِ[1]، وهي قُدْرَةٌ حادِثَةٌ[2]، أَحْدَثَها خالِقُنا عَزَّ وجَلَّ علَى ما أرادَ العَبْدُ[3]، وَإرادَةُ العَبْدِ غَيرُ مُؤَثِّرَةٍ في فِعْلِهِ[4]، كَما ادَّعَتِ المُعْتَزِلَةُ[5]، لِرُجُوعِها إلى اللهِ تعالَى مِنْ جِهَةِ الإيجادِ، فَهْوَ الذي خَلَقَ القُدْرَةَ والإرادَةَ، وحَصَرَ الأسْبابَ ورَفَعَ المَوانِعَ، قال تَعالَى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[6]، وقالَ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ: «مَا شاءَ اللهُ كانَ، وما لمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ»[7].

واعْتِماداً علَى عَدَمِ تَأْثيرِ قُدْرَةِ العَبْدِ فإنَّهُ «لا يُؤْمِنُ إلَّا مَنْ سَبَقَ لهُ مِنَ اللهِ السَّعادَةُ في الذِّكْرِ الأوَّلِ، فَمَا شاءَ اللهُ كانَ وما لم يَشَأْ لم يَكُنْ، فالعَبْدُ لا يَمْلِكُ كَسْباً يَنْفَعُهُ أو يَضُرُّهُ إلَّا بِمَشيئَةِ اللهِ وقُدْرَتِهِ»[8]، قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[9]، ولا تَرْجِعُ إلى العَبْدِ إلَّا مِنْ حَيثُ إنَّهُ شَخْصٌ خُلِقَ فيهِ ذلكَ الشَّيْءُ ومُكِّنَ مِنْ مُباشَرَتِهِ بَعْدَ خَلْقِ إرادَتِهِ وتَعَلُّقِها بِهِ[10]، قالَ تَعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾[11]، وبِهذا الكَسْبِ يَكونُ مَدارُ التَّكْليفِ،

(1) يُنظر: السابق، ص241.

(2) تُطلق القُدرة الحادثة على سلامة الأسباب والآلات، وعلى العرض المُقارن للفعل [يُنظر: **شرح الناظم على الجوهرة**، للقاني، هامش ص583].

(3) يُنظر: **مسائل الاختلاف بين الأشاعرة والماتريدية**، لابن كمال باشا: شمس الدِّين أحمد بن سليمان (ت. 940هـ)، شرح: سعيد عبد اللطيف فودة، دار الفتح، ط2، عَمَّان: 2011م، ص145. و[يُنظر: **كتاب شرح الصاوي على جوهرة التوحيد**، للصاوي، ص240].

(4) إذ ليست من شرط القدرة إذا تعلَّقت أن تؤثِّر، فكم من مُمكن باقٍ في كتم العدم لا يشمُّ قط رائحة الوجود، والله قادر على إيجاده، وقدرة العبد لم تؤثر قط؛ لكونها قدرة في محل [يُنظر: **شرح الناظم على الجوهرة**، للقاني، هامش ص568].

(5) يُنظر: **كتاب شرح الصاوي على جوهرة التوحيد**، للصاوي، ص243.

(6) سورة الإنسان، من الآية: 30.

(7) **سنن أبي داود**، سليمان بن الأشعث (ت. 275هـ)، دار الفجر للتراث، القاهرة: 2009م، ص843، برقم 5075.

(8) يُنظر: **مسائل الاختلاف بين الأشاعرة والماتريديَّة**، لابن كمال باشا، ص146-147.

(9) سورة الإنسان، من الآية: 30.

(10) يُنظر: **شرح الناظم على الجوهرة**، للقاني، ص563.

(11) سورة المزمل، من الآية: 19.

وعليهِ يُقاضِي عِبادَهُ ويُحاسِبُهُمْ[1]، وذلكَ بِمُقْتَضى الحِكْمَةِ ونُفُوذِ حُكْمِهِ في عِبادِهِ بالحَقِّ الواجِبِ وتَصَرُّفِهِ جَلَّ جَلالُهُ بالقُدْرَةِ الباهِرَةِ والحُجَّةِ البالِغَةِ لهُ سُبْحانَهُ، رُغْمَ عَدَمِ تَأْثيرِها مِنَ العَبْدِ؛ لأنَّ العَبْدَ لا يَكونُ خالِقاً لهذهِ الأفْعالِ أو مُوجِداً لها؛ لأنَّهُ لَوْ كانَ خالِقاً لها لَكانَ عالِماً بِتَفاصِيلِها في الأزْمِنَةِ الثَّلاثَةِ[2]، وهو مُحالٌ، ولوْ كانَ فاعِلاً لَكانَ شَرِيكاً للهِ في أفْعالِهِ[3]، وهذا باطِلٌ؛ ولا يَكونُ ذلكَ إلَّا لَهُ سُبْحانَهُ، قالَ تَعالَى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[4]، بلِ العَبْدُ لا يَكونُ إلَّا مُتَلَبِّساً بها ومُتَّصِفاً ومُباشِراً لَها، فيُقالُ للعَبْدِ: مُصَلٍّ ومُزَكٍّ؛ خِلافاً للخالِقِ فلا يُقالُ لهُ: مُصَلٍّ أو مُزَكٍّ، بلْ يُقالُ: خالِقٌ للصَّلاةِ والزَّكاةِ، ومِنْ ثَمَّ فإنَّ الكاسِبَ يَفْعَلُ تارَةً الحَسَنَ وتارَةً القَبِيحَ، بِخِلافِ الخالِقِ فلا يَفْعَلُ إلَّا حَسَناً[5]، إذْ لَيسَ للعَبْدِ في هذهِ القُدْرةِ سِوَى نِسْبَةِ التَّرْجيحِ المُتَمَثِّلَةِ في المَيْلِ[6]، إلى الفِعْلِ أو تَرْكِهِ مِنْ أفْعالِهِ الاخْتِياريَّةِ؛ إذْ لا يَلْزَمُ مِنْها وُجُودُ أمْرٍ حَقيقيٍّ، ويُعَدُّ صَرْفُ العَبْدِ قُدْرَتَهُ وإرادَتَهُ إلى الفِعْلِ كَسْباً، وإيجادُ اللهِ تَعالَى الفِعْلَ عَقِبَ ذلكِ الصَّرْفِ خَلْقاً، فالمَقْدُورُ يَقَعُ تَحْتَ قُدْرَتَينِ: قُدْرَةِ اللهِ بِجِهَةِ الخَلْقِ، وقُدْرَةِ العَبْدِ بِجِهَةِ الكَسْبِ، وهُمَا مُقْتَرِنَتانِ، فَقُدْرَةُ العَبْدِ

(1) يُنظر: **كبرى اليقينيات الكونية، وجود الخالق ووظيفة المخلوق**، محمد سعيد رمضان البوطي، ص133.

(2) فلا يستطيع العبد أنْ يدرك عند حركة يده مثلاً مقدار الطَّاقة التي صُرفت ولا عدد العروق التي تحرَّكت وما كُنه الأوامر التي صدرت عن المُخّ ولا كيفيَّة صدورها [يُنظر: **كتاب شرح الصاوي على جوهرة التوحيد**، للصاوي، ص231].

(3) يُنظر: **كتاب شرح الصاوي على جوهرة التوحيد**، للصاوي، ص244، ويذهب السلفيون إلى أنَّ الإنسان فاعل على الحقيقة لأفعاله [يُنظر: **شرح العقيدة الواسطيَّة لابن تيميَّة**، محمد بن صالح العثيمين، ص439]، وهو مردود بأنَّ صِفَة الوحدانيَّة تقتضي أنْ يكون اللَّه واحداً في ذاته وواحداً في صفاته وواحداً في أفعاله [يُنظر: **العقائد الثمانون في شهادتي الإسلام عند أهل السُّنة والجماعة وأدلَّتها من القرآن الكريم والحديث الشريف**، عبد العالم القُريدي، دار الغرب الإسلامي، ط1، تونس: 2014م، ص45].

(4) سورة الملك، الآية: 14.

(5) يُنظر: **شرح الناظم على الجوهرة**، للقاني، ص566.

(6) وهو العزم المُصمِّم على فعل شيء أو تركه، وهو حاصل بقُدرة العبد، وهو مناط الثواب والعقاب [يُنظر: **شرح الناظم على الجوهرة**، للقاني، هامش ص563].

الحادِثَةُ التي عَنْها كَسْبُهُ عَرَضٌ[1]، مُقارِنٌ لِفِعْلِهِ يَخْلُقُهُ اللهُ عندَ قَصْدِ الاكْتِسابِ والمَيْلِ إليهِ[2]، بَعْدَ سَلامَةِ الآلاتِ والأسْبابِ[3].

فَالكَسْبُ عَرَضٌ مُقارِنٌ للفِعْلِ يَخْلُقُهُ اللهُ عِندَ قَصْدِ الاكْتِسابِ بَعْدَ سَلامَةِ الآلاتِ والأَسْبابِ، فإنْ قَصَدَ فِعْلَ الخَيْرِ خَلَقَ اللهُ تَعالَى فيهِ قُدْرَةَ فِعْلِ الخَيْرِ إنْ شاءَ، وإنْ قَصَدَ فِعْلَ الشَّرِّ خَلَقَ اللهُ تَعالَى فيهِ قُدْرةَ فِعْلِ الشَّرِّ إنْ شاءَ، فَكانَ هو المُضَيِّعَ لِقُدْرَةِ فِعْلِ الخَيْرِ بِقَصْدِهِ فِعْلَ الشَّرِّ، وذلكَ كَسْبُهُ، فَيَسْتَحِقُّ الذَّمَّ والعِقابَ»[4]، قالَ اللقاني في جَوْهَرَتِهِ[5]:

وَعِـنْـدَنـا لِـلْـعَـبْـدِ كَـسْـبٌ كُـلِّـفَـا ... بِـهِ ولـم يَـكُـنْ مُـؤَثِّـراً فَـلْـتَـعْـرفـا

فَـلَـيْـسَ مَـجْـبُـوراً ولا اخْـتِـيـاراً ... ولَـيْـسَ كُـلّاً يَـفْـعَـلُ اخْـتِـيـارَا

أيْ: فَلَيسَ مَجْبُوراً وليسَ لا اختيار له[6]، وهْوَ ما يُرْوَى عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبي طالِبٍ في قَوْلِهِ: «إنَّهُ أَمْرٌ بَينَ أمْرَيْنِ، لا جَبْرَ ولا تَفْويضَ»[7]، ويَقولُ الشَّيخُ مُحمَّدُ البَشَّار في مَنْظُومَتِهِ (تَرْغِيبِ المُرِيدِ السَّالِكِ)[8]:

---

(1) والعرض هو الحركة المقارنة لإيجاد الفعل [يُنظر: **كتاب شرح الصاوي على جوهرة التوحيد**، للصاوي، ص234].

(2) وكذلك الدَّاعي إلى فعل العبد فهو مخلوق على الصحيح [يُنظر: **كتاب شرح الصاوي على جوهرة التوحيد**، للصاوي، ص234].

(3) المُراد من الأسباب الأشياء التي تحمل على الفعل، كالعقل، والآلات: الأشياء التي تُعين على الفعل، وهي الكواسب، فماء الوضوء سبب عرفي للصلاة، والأعضاء التي تُحاول بها الطاعة آلات لها، وسلامة الأسباب والآلات شرط في خلق الله العَرَضَ عادةً [يُنظر: **تحفة المريد على جوهرة التوحيد**، للباجوري: إبراهيم بن محمد (ت. 1277هـ)، مط: مصطفى البابي الحلبي، مصر: 1939م، ص62. **وكتاب شرح الصاوي على جوهرة التوحيد**، للصاوي، ص233. يُنظر: **شرح الناظم على الجوهرة**، للقاني، ص584].

(4) **هداية المريد لجوهرة التوحيد**، للقاني، ص177.

(5) **حاشية الأمير على شرح عبد السَّلام على الجوهرة في علم الكلام**، مط: محمد علي صبيح وأولاده، القاهرة: 1953م، ص101.

(6) يُنظر: **الجوهر الفريد في علم التوحيد**، عبد الهادي إدريس أبو أصبع، ص110.

(7) يُنظر: **شرح الناظم على الجوهرة**، للقاني، هامش ص589.

(8) **سراج السالك شرح أسهل المسالك**، للجعلي: عثمان بن حسنين بري، المكتبة الثقافيَّة، بيروت: د. ت، ص16.

وعِنْدَنا لِلعَبْدِ كَسْبٌ يُخْلَقُ ثُمَّ شَهِيدُ الحَرْبِ حَيٌّ يُرْزَقُ

ويَقُولُ أحمدُ المقري المَغْرِبيُّ في كِتابِه **إضاءَةِ الدُّجُنَّةِ في اعْتِقادِ أهْلِ السُّنَّةِ**[1]:

وَقُدْرَةُ العَبْدِ وغَيْرُ ذَلِكْ فَالكُلُّ خَلْقٌ للقَدِيرِ المالِكْ

نَعَمْ لَهُ كَسْبٌ بِهِ يُكَلَّفُ شَرْعاً ولا تَأْثِيرَ مِنْهُ يُعْرَفُ

وبِعِبارَةٍ أُخْرَى فَـ «إنَّ اللهَ خَلَقَ في العَبْدِ المَيْلَ إلَى الشَّيْءِ والدَّاعِيَةَ إليهِ والاخْتِيارَ، ولَيْسَ خَلْقُ هذهِ الأشْياءِ يُوْجِبُ اضْطِرارَهُ إلَى الفِعْلِ؛ لأَنَّ اللهَ تَعالَى أَقْدَرَهُ فِيمَا يَخْتارُ أو يَمِيلُ إليهِ عَنْ داعِيَةٍ تَدْعُوهُ إليهِ عَلَى العَزْمِ عَلَى فِعْلِهِ أوْ تَرْكِهِ، ولا اضْطِرارَ مَعَ الإقْدارِ، ومِمَّا يُبَيِّنُ ذلكَ أنَّ خَلْقَ المَيْلِ إلَى فِعْلِهِ والدَّاعِيَةِ إليهِ لا يُخالِفُ الإقْدارَ عَلَى العَزْمِ عَلَى تَرْكِهِ؛ أيْ: تَرْكِ مَا خُلِقَ المَيْلُ والدَّاعِيَةُ إليهِ أنَّ الإنْسانَ يَتْرُكُ فِعْلَ مَا يُحِبُّهُ ويَخْتارُهُ ويَفْعَلُ مَا يَكْرَهُهُ؛ لِخَوْفٍ أوْ حَيَاءٍ، فالعَزْمُ المَذْكُورُ حَصَلَ بِقُدْرَةِ العَبْدِ المَخْلُوقَةِ، وبهِ صَحَّ تَعَلُّقُ التَّكْليفِ بالعَبْدِ وانْتِفاءُ الجَبْرِ المَحْضِ، ولوْ كانَ العَزْمُ مَخْلُوقاً للَّهِ كَبَقِيَّةِ الأفْعالِ مَا صَحَّ تَكْليفُهُ»[2]، فَـ«حَرَكَةُ العَبْدِ اخْتِياراً نِسْبَتُها إلَى قُدْرَةِ اللهِ تَعالَى تُسَمَّى خَلْقاً، وباعْتِبارِ نِسْبَتِها إلَى قُدْرَةِ العَبْدِ تُسَمَّى كَسْباً، فَهُوَ خَلْقٌ للرَّبِّ ووَصْفٌ للعَبْدِ وكَسْبٌ لهُ، وقُدْرَتُهُ خَلْقٌ للرَّبِّ ووَصْفٌ للعَبْدِ ولَيْسَ بِكَسْبٍ لَهُ»[3].

- **مَذْهَبُ الجَبْرِيَّةِ:**

والجَبْرُ في اصْطِلاحِ المُتَكَلِّمينَ: «هوَ نَفْيُ الفِعْلِ حَقيقَةً عَنِ العَبْدِ وإضافَتُهُ إلَى الرَّبِّ تَعالَى»[4]، و«إنَّ الإنْسانَ لا يَقْدِرُ علَى شَيْءٍ، ولا يُوصَفُ بالاسْتِطاعَةِ،

(1) ص31 نقلاً عن: **تهذيب واختصار وشروح السنوسية أم البراهين**، تهذيب: عمر عبد اللّه كامل، ص140.

(2) يُنظر: **شرح الناظم على الجوهرة**، للقاني، هامش ص563.

(3) يُنظر: السابق، هامش ص568.

(4) **الملل والنحل**، للشهرستاني: محمد بن عبد الكريم، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت: 1404هـ، 1/ 84.

وإنَّما هوَ مَجْبُورٌ في أفْعالِهِ، لا قُدْرَةَ لهُ ولا إرادَةَ ولا اخْتِيارَ، وإنَّما يَخْلُقُ اللهُ تَعالَى الأفْعالَ فيهِ علَى حَسبِ ما يَخْلُقُ في سائِرِ الجَماداتِ، وتُنْسَبُ إليهِ الأفْعالُ مَجازاً، كَما تُنْسَبُ إلَى الجَماداتِ، كَما يُقالُ: أَثْمَرَتِ الشَّجَرَةُ، وجَرَى المَاءُ، وتَحَرَّكَ الحَجَرُ، وطَلَعَتِ الشَّمْسُ وغَرُبَتْ، وتَغَيَّمَتِ السَّماءُ وأَمْطَرَتْ، واهْتَزَّتِ الأرْضُ وأَنْبَتَتْ، إلَى غَيرِ ذلكَ، والثَّوَابُ والعِقَابُ جَبْرٌ، كَما أنَّ الأفْعالَ كُلَّهَا جَبْرٌ، وإذا ثَبَتَ الجَبْرُ فالتَّكْليفُ -أيْضاً- كانَ جَبْراً»[1]، فَكانَ العَبْدُ -وِفْقاً لِمَذْهَبِهِمْ- في أفْعالِهِ مَجْبُوراً، مَسْلُوبَ الاخْتيارِ، كالرِّيشَةِ المُعَلَّقَةِ في الهَواءِ، تُقَلِّبُهَا الرِّياحُ مِنْ غَيرِ قُدْرَةٍ أو إرادَةٍ في ظاهِرِهِ وباطِنِهِ علَى مُخالَفَتِها أو مُوافَقَتِها[2].

وَقَدْ بَنَى الجَبْريَّةُ مَذْهَبَهُمْ عَلَى أصْلَيْنِ: الأوَّلُ - الاحْتياجُ إلَى مُرَجِّحٍ لِتَرْجيحِ فِعْلِ العَبْدِ عَلَى تَرْكِهِ ولا يَكونُ مِنَ العَبْدِ، الثَّاني - الفاعِلُ المُخْتارُ يَنْبَغي أنَّ يَكونَ عالِماً بِتَفاصيلِ أحْوالِ أفْعَالِهِ، وَهْيَ غَيرُ مَعْلومَةٍ للعَبْدِ[3].

وَقَدْ أجابَ أهْلُ السُّنَّةِ عَنْ إشْكالِ الجَبْريَّةِ، فَقالوا: إنَّ الجَبْرَ اللَّازِمَ مِنْ تَعْميمِ عِلْمِهِ تَعَالَى وإرادَتِهِ اللَّذَيْنِ يَتَعَلَّقانِ بِوُجودِ الفِعْلِ وعَدَمِهِ، فَيَجِبُ الفِعْلُ أوْ يَمْتَنِعُ؛ وِفْقاً لَهُما، لا يَتَعارَضُ مَعَ كَونِ عِلْمِهِ تَعَالَى وإرادَتِهِ، تَعَلَّقَا بِفِعْلِ العَبْدِ بِاخْتِيارِهِ، فاللهُ يَعْلَمُ ويُريدُ أنَّ العَبْدَ يَفْعَلُهُ أوْ يَتْرُكُهُ بِاخْتِيارِهِ، وَهْوَ لا يُنافي الاخْتِيارَ رَغْمَ كَونِهِ واجِباً أوْ مُمْتَنِعاً؛ لأنَّ الوُجوبَ بالاخْتِيارِ مُحَقِّقٌ للاخْتِيارِ، لا مُنافٍ لهُ، أمَّا قَولُهُ تَعالَى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾[4]، فإنَّ الاخْتِيارَ في الآيَةِ يَعْني القُدْرَةَ والإرادَةَ؛ وذلكَ بأنْ يَخْلُقَ اللهُ للعَبْدِ قُدْرَةً بِها يَميلُ ويَفْعَلُ، ومَيْلُ العَبْدِ وفِعْلُهُ صادِرانِ عَنْ تَقْديرِ اللهِ ومَخْلوقانِ لهُ، وهُما أَثَرُ الخَلْقِ والقُدْرَةِ، ومِنْ ثَمَّ كانَتْ أفْعالُ العَبْدِ الاخْتِياريَّةُ مَنْسوبَةً إلى اللهِ وُجوداً وحُدوثاً وإلى العَبْدِ كَسْباً واتِّصافاً ومُبَاشَرَةً، وعليها يَكونُ مَدارُ الثَّوَابِ والعِقَابِ[5].

(1) **الملل والنحل**، للشهرستاني، 1/ 85.
(2) يُنظر: **هداية المريد لجوهرة التوحيد**، للقاني، ص174.
(3) يُنظر: **شرح الناظم على الجوهرة**، للقاني، هامش ص587.
(4) سورة القصص، من الآية: 68.
(5) يُنظر: السابق، هامش ص575.

• **مَذْهَبُ القَدَرِيَّةِ:**

ويُلقَّبُ بِهِ المُعْتَزِلَةُ[1]، والقَدَرِيَّةُ هُمْ مَنْ نَفَى القَدَرَ عَنِ اللهِ وأَثْبَتَهُ للعَبْدِ[2]، «واتَّفَقُوا علَى أنَّ العَبْدَ قادِرٌ خالِقٌ لأفْعالِهِ[3]، خَيْرِها وشَرِّها، مُسْتَحِقٌّ عَلَى ما يَفْعَلُهُ ثَواباً وعِقاباً في الدَّارِ الآخِرَةِ، والرَّبُّ تَعالَى مُنَزَّهٌ أنْ يُضافَ إليهِ شَرٌّ وظُلْمٌ وفِعْلٌ هوَ كُفْرٌ ومَعْصِيَة؛ لأنَّهُ لو خَلَقَ الظُّلْمَ كانَ ظالِماً، كَما لوْ خَلَقَ العَدْلَ كانَ عادِلاً»، ويَرَوْنَ «أنَّ العِبادَ مُوجِدُونَ لأفْعالِهِمْ، مُخْتَرِعُونَ لَها بقُدَرِهِمْ»[4]، وإنْ كانَتْ قُدَرُهُمْ مَخْلُوقَةً للهِ؛ إذْ لوْ نَزَعَها اللَّهُ مِنْهُمْ لم تُؤَثِّرْ[5]، واسْتَدَلَّ هؤلاءِ علَى ذلكَ بأنَّ اللهَ لا يَخْلُقُ الأفْعالَ القَبيحَةَ، كالظُّلْمِ والشِّرْكِ والفِسْقِ؛ لِعِلْمِهِ تَعالَى بِقُبْحِها؛ بِناءً عَلَى تَحْسِينِهِم العَقْليِّ[6]، وأنَّ اللهَ لَوْ كانَ فاعِلاً لها لَكانَ مُتَّصِفاً بِها، فَيَكون شارِباً وآكِلاً وقاعِداً وقائِماً، وهذا مُنافٍ للعَقْلِ[7]، لِمَا تَقَرَّرَ لَدَيْهِمْ مِنْ أنَّهُ لوْ كانَ اللهُ خالِقاً لأفْعالِ العِبادِ لَلَزِمَ نِسْبَتُهُ إلى الجَوْرِ؛ لأنَّهُ يَخْلُقُ العِصْيانَ ويُعاقِبُ عليهِ[8].

وَقَدْ أجابَ أهْلُ السُّنَّةِ عَلَى شُبْهَةِ القَدَرِيَّةِ بِقَوْلِهِمْ: «الفَرْقُ بَيِّنٌ بَيْنَ مَنْ خَلَقَ الفِعْلَ وبَيْنَ مَنْ فَعَلَهُ، فاللهُ خالِقُ الفِعْلِ والعَبْدُ فاعِلٌ لَهُ؛ أيْ: مُتَّصِفٌ بِفِعْلِهِ، وإنَّمَا يُسْنَدُ الفِعْلُ حَقِيقَةً إلَى مَنْ قامَ بِهِ، لا إلَى مَنْ خَلَقَهُ وَأوْجَدَهُ، أَلَا

---

(1) يُنظر: **تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهية**، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، د. ت، ص110.

(2) يُنظر: السابق، ص111.

(3) أي: الاختياريَّة، ويتَّفق المُعتزلة مع أهل السُّنة في أنَّ اللَّه هو خالق أفعال العبد الاضطراريَّة [يُنظر: **إتحاف المريد بجوهرة التوحيد**، لعبد السلام بن إبراهيم اللقاني (ت. 1078هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة دار الفلاح، ط1، حلب: 1990م، ص103].

(4) **هداية المريد لجوهرة التوحيد**، للقاني، ص174.

(5) وبقولهم هذا ترجَّح عدم كفرهم واكتفي وصفهم بالفسق والابتداع. [يُنظر: **كتاب شرح الصاوي على جوهرة التوحيد**، للصاوي، ص246].

(6) يرى أهل السُّنة أنَّ الحسن والقبح لا يكون إلَّا في الكَسْبِ، فالعبد يفعل الحسن ويفعل القبيح، أمَّا في الخَلْقِ فلا يكون إلَّا حسناً، فالخالق لا يفعل إلا حَسَناً. [يُنظر: **شرح الناظم على الجوهرة**، للقاني، هامش ص566].

(7) **هداية المريد لجوهرة التوحيد**، للقاني، ص175.

(8) يُنظر: **شرح الناظم على الجوهرة**، للقاني، ص539.

تَرَى أنَّ الأبْيضَ مَثَلاً هو الجِسْمُ وإنْ كانَ البَيَاضُ القائِمُ بهِ مِنْ خَلْقِهِ تَعالَى وإيْجادِهِ»[1]، وأجابوا أيْضاً «أنَّ العِقابَ علَى الفِعْلِ مِنْ حَيثُ كَوْنُهُ مَنْسُوباً للعَبْدِ، لا مِنْ حَيثُ كَوْنُهُ مَخْلُوقاً للَّهِ، فَإنَّ المُكَلَّفَ إذا عَلَّقَ القُدْرَةَ التي خَلَقَ اللهُ تَعالَى لهُ بالمَعْصِيَةِ يُعَذَّبُ عليها بَدَلاً عَنِ الطَّاعَةِ مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى تَعْلِيقِها بالطَّاعَةِ كانَ مُسْتَوْجباً العُقُوبَةَ»[2].

• مَذْهَبُ ابْنِ تَيْمِيَةَ:

يَرَى ابْنُ تَيميَةَ في أوَّلِ أمْرِهِ وَمَنْ تَبِعَهُ[3]، أنَّ لِقُدْرَةِ العَبْدِ تَأْثِيراً فاعِلاً في مَقْدُورِها كَما تُؤَثِّرُ قُوَى الطَّبائِعِ[4]، فَعَلاقَةُ العَبْدِ بِما يُسْنَدُ إليهِ مِنْ أفْعالٍ عَلاقَةُ المُتَناوِلِ لِمَا خَلَقَ اللهُ، وهذا التَّناوُلُ ما هوَ إلَّا قُوَّةٌ أوْدَعَها اللهُ إيَّاهُ، ومِنْ ثَمَّ لا يَكونُ التَّأْثيرُ إلَّا بِفِعْلِها[5]، مُتَأَثِّراً بالفَلاسِفَةِ الذينَ يُقِرُّونَ أنَّ في الأشْياءِ أسْباباً ذاتِيَّةً تَكْمُنُ فِيها[6]، تُسَمَّى عِلَّةً أو سَبَباً، وهو تَصَوُّرٌ يَتَناقِضُ مَعَ عَقِيدَةِ جُمْهُورِ أهْلِ السُّنَّةِ[7]، التي تَتَمَثَّلُ في أنَّ النَّتائِجَ والآثارَ التي تُشَاهَدُ عِنْدَ اقْتِرانِ وتَلاقي ما نُسَمِّيهِ أسْباباً ومُسَبّباتٍ ما هِيَ إلَّا أشْياءُ خَلَقَها اللهُ عِنْدَ تَلاقي هذهِ الأسْبابِ

(1) **هداية المريد لجوهرة التوحيد**، للقاني، ص163.

(2) يُنظر: **شرح الناظم على الجوهرة**، للقاني، هامش ص539.

(3) وهُم كُثر، ولعلَّهم لم يطَّلعوا على رجوع ابن تيمية عن ذلك، ومنهم: الدكتور: علي محمد الصلابي الذي صرَّح بتأثير السَّبب في المسبِّب [يُنظر: **الإيمان بالقدر**، علي محمد الصلابي، دار المعرفة، ط3، بيروت: 2011م، ص269].

(4) يُنظر: **منهج علماء الحديث والسنة في أصول الدين (علم الكلام)**، مصطفى حلمي، مط: قسم الفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم جامعة القاهرة، ط3، مصر: 1996م، ص179.

(5) يُنظر: **تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهية**، محمد أبو زهرة، ص118-203.

(6) لم يستطع أحد إلى اليوم الوصول ذهنيّاً إلى الكشف عن ذاتيَّة هذه القوى العليَّة، كما لم يخبرنا الخالق أنَّه أودع قِوى ذاتيَّة مؤثِّرة تكْمن في هذه الأسباب [يُنظر: **السلفيّة (مرحلة زمنيّة مباركة لا مذهب إسلامي)**، محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، إعادة طبع، دمشق: 2004م، ص182].

(7) وهُم الأشاعرة والماتُريديَّة [يُنظر: **سراج السالك شرح أسهل المسالك**، للجعلي: السيد عثمان بن حسنين بري، المكتبة الثقافية، بيروت، د. ت، ص49] .

ومُسَبّباتِها واقْتِرانِها لِمُجَرَّدِ الرَّبْطِ بينَها، ولم تَحْدُثْ بِسَبَبِها أو بِتَأْثِيرِها أو بِفاعِلِيَّةٍ مِنْها[1]، فالسَّبَبُ الظَّاهِرُ بَينَها جَعْلِيٌّ ذو تَلازُمٍ عادِيٍّ بِواسِطَةِ التَّكَرُّرِ[2]، جَعَلَهُ اللهُ أَمارَةً علَى ما شاءَ مِنَ الحَوادِثِ بَينَها وبَينَ ما جُعِلَتْ دَلِيلاً عليهِ دُونَ مُلازَمَةٍ عَقْلِيَّةٍ[3]، وقَدْ صَرَّحَ القُرآنُ الكَريمُ بذلكَ، قالَ تَعالَى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾[4]، ولَيْسَ سَبَباً حَقِيقِيّاً رَغْمَ اسْتِمْرارِهِ تَقارُناً؛ لِذا جازَ تَخَلُّفُهُ[5]، كَمَا تَخَلَّفَتِ النَّارُ في حَرْقِ إبْراهِيمَ عليهِ السَّلامُ، وتَخَلَّفَتِ السِّكِّينُ في ذَبْحِ إسْماعيلَ عليهِ السَّلامُ، وتَخَلَّفَ بَطْنُ الحُوتِ عَنْ هَضْمِ يُونُسَ عليهِ السَّلامُ؛ إذْ لَوْ كانَ في النَّارِ أو السِّكِّينِ أو البَطْنِ قُوَّةٌ تَقْتَضِي الحَرْقَ أو القَطْعَ أو الهَضْمَ لَأَدَّتْ مُهِمَّاتِها اسْتِقْلالاً واسْتِغْناءً عَنِ اللهِ بهذهِ القُوَّةِ المُودَعَةِ، دونَ حاجَةٍ لِعَوْنٍ مُسْتَمِرٍّ، وهذا يَتَناقضُ مَعَ قَيُّومِيَّةِ اللهِ سُبْحانَهُ؛ وقِيامِهِ بأمْرِ المَخْلُوقاتِ علَى الدَّوامِ والاسْتِمْرارِ، قالَ تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾[6]، وقالَ تعالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾[7]، ولا يَخْفَى ما يَدُلُّ عليهِ الفِعْلانِ المُضَارِعانِ (يُمْسِكُ، وتَقُومُ) في الآيتينِ مِنْ تَجَدُّدٍ وحُدُوثٍ[8].

وَلَعَلَّ الذي جَعَلَ ابْنَ تَيْمِيةَ يَذْهَبُ هذا المَذْهَبَ هوَ ما فَهِمَهُ مِنْ سَبَبِيَّةٍ حَقِيقيَّةٍ لِدَلالَةِ الباءِ أو اللَّام في آياتٍ كَثيرَةٍ، نَحْوَ قَولِهِ تِعالَى: ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾[9]، وقَولِهِ تِعالَى: ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ

(1) يُنظر: **السلفية (مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي)**، محمد سعيد رمضان البوطي، ص173.
(2) يُنظر: **كبرى اليقينيات الكونية وجود الخالق ووظيفة المخلوق**، محمد سعيد رمضان البوطي، ص238. **وعقائد الأشاعرة في حوار هادئ مع شبهات المناوئين**، صلاح الدِّين ابن أحمد الإدلبي، دار السَّلام، ط1، القاهرة: 2008م، ص121.
(3) يُنظر: **كتاب شرح الصاوي على جوهرة التوحيد، للصاوي**، ص247.
(4) سورة الأنبياء، من الآية: 30.
(5) يُنظر: السابق، ص241.
(6) سورة فاطر، من الآية: 41.
(7) سورة الروم، من الآية: 25.
(8) يُنظر: **السلفية (مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي)**، محمد سعيد رمضان البوطي، ص176.
(9) سورة النمل، من الآية: 60.

ٱلثَّمَرَٰتِ﴾[1]، وقَولِهِ تِعالَى: ﴿وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾[2]، وهُوَ فَهْمٌ يُؤَدِي بِلا شَكٍّ إلى الكُفْرِ والإشْراكِ[3]، إذا ما رَجَعَنا بهذهِ الآياتِ إلى الآياتِ الأُخْرَى التي تَقْطَعُ بِأَنَّ الخالِقَ والفاعِلَ الحَقيقِيَّ هوَ اللهُ سُبْحانَهُ، ناهِيكَ عَنْ مُخالَفَتِهِ لإجْماعِ عُلَماءِ أهْلِ السُّنَّةِ في ذلكِ[4]، إذِ المَعْنَى وِفْقاً للسَّبَبِيَّةِ الحَقِيقيَّةِ أنَّ اللهَ تَوَسَّطَ لإنْباتِ النَّبَاتِ بالمَاءِ، وتَوَسَّطَ لإنْزالِ المَطَرِ بالسَّحَابِ، وهذا يَعْنِي أنَّ اللهَ عاجِزٌ يَقْوَى بِغَيرِهِ، وأنَّهُ ليسَ خالِقاً لِكُلِّ شَيْءٍ[5]، وهذا عَيْنُ الكُفْرِ.

- **رُجُوعُ ابْنِ تَيْمِيَّةَ عَنْ رَأْيِهِ:**

لَكِنَّ ابْنَ تَيمِيةَ - كَما يَرَى الشَّيْخُ البُوطِي[6] - ضَرَبَ عَنْ هذا الرَّأْيِ وأَعْرَضَ عَنْهُ ورَجَعَ إلى رَأْيِ الجُمْهُورِ السُّنِّيِّ، وهوَ الرَّأْيُ الذي اسْتَقَرَّ عَلَيهِ فيمَا بَعْدُ؛ حَيْثُ يَقولُ: «إنَّ كُلَّ مَا خَلَا اللهَ فَهُوَ مَعْدُومٌ بِنَفْسِهِ، لَيْسَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ وُجُودٌ وَلَا حَرَكَةٌ وَلَا عَمَلٌ وَلَا نَفْعٌ لِغَيْرِهِ مِنْهُ؛ إذْ ذَلِكَ جَمِيعُهُ خَلْقُ اللهِ وَإِبْدَاعُهُ وَبَرْؤُهُ وَتَصْوِيرُهُ، فَكُلُّ الْأَشْيَاءِ إذَا تَخَلَّى عَنْهَا اللهُ فَهِيَ بَاطِلٌ، يَكْفِي فِي عَدَمِهَا وَبُطْلَانِهَا نَفْسُ تَخَلِّيهِ عَنْهَا، وَأَنْ لَا يُقِيمَهَا هُوَ بِخَلْقِهِ وَرِزْقِهِ؛ وَإِذَا كَانَتْ بَاطِلَةً فِي أَنْفُسِهَا - وَالْحَقُّ إنَّمَا هُوَ لِلَّهِ وَبِاللَّهِ وِمِن اللَّهِ - صَدَقَ قَوْلُ الْقَائِلِ: «أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا الله بَاطِلٌ»[7].

---

(1) سورة الأعراف، من الآية: 57.

(2) سورة الإسراء، من الآية: 12.

(3) يقول الدردير [يُنظر: **كتاب شرح الصاوي على جوهرة التوحيد**، للصاوي، ص245]:

ومن يقل بالطبع أو بالعلَّةِ فذاك كفر عند أهل الملَّةِ

ومن يقل بالقوَّة المودعةِ فذاك بدعيٌّ فلا تلتفتِ

(4) يُنظر: **كتاب شرح الصاوي على جوهرة التوحيد**، للصاوي، ص246.

(5) يُنظر: **السلفية (مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي)**، محمد سعيد رمضان البوطي، ص175.

(6) يُنظر: السابق، ص186.

(7) **مجموع الفتاوى**، لابن تيمية: تقي الدِّين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم الحراني (ت. 728هـ)، تحقيق: أنور الباز - عامر الجزار، دار الوفاء، ط3، 1426هـ/ 2005م، 2/ 425.

• **كَسْبُ العَبْدِ لا يَتعارَضُ مَعَ سَعادَةِ الإنْسانِ وشَقَاوَتِهِ الأَزَلِيَّتَيْنِ:**

كَسْبُ العَبْدِ واخْتِيارُهُ لا يَتعارَضُ مَعَ شَقاوَتِهِ أو سَعادَتِهِ الأَزَلِيَّتَيْنِ؛ فالعَبْدُ وإنْ كانَ في أَصْلِ خِلْقَتِهِ وجِبِلَّتِهِ إمَّا للجَنَّةِ وإمَّا للنَّارِ، فإن كانَ للجَنَّةِ فَبِجِبِلَّتِهِ يَسْتَجْلِبُ إرادَةَ الخَيْرِ، ولهُ وَجْهٌ إليها، واللهُ الكَريمُ يُلْقِي إليهِ ويُنَزِّلُ عليهِ تلكَ الإرادَةَ المُناسِبَةَ لِطَبْعِهِ، وإنْ كانَ للنَّارِ فَبِطَبْعِهِ يَمِيلُ إلى الشَّرِّ ويَسْتَجْذِبُهُ، واللَّهُ القَهَّارُ يُنَزِّلُ عليهِ ما يُلائِمُهُ مِنْ إرادَةِ الشَّرِّ، فذلكَ مَغْناطيسُ الخَيرِ، وهذا مَغْناطيسُ الشَّرِّ[1]، ولا يَفُوتُنا أنَّ إرادَةَ العَبْدِ مُعَرَّضَةٌ لِتَأْثُّراتٍ مِنْ أَلْطافِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ وعِقابِهِ؛ إذْ بِلُطْفِهِ تَعالَى يُوَفَّقُ[2]، العَبْدُ في الانْبِعاثِ نَحوَ الخَيْرِ، وبِعِقابِهِ يَخْذُلُهُ فيَتَّجِهُ إلى أَسْبابِ الشَّقاءِ، ولِكُلٍّ مِنَ الطَّريقَيْنِ أَسْبابُهُ، فَعَقْدُ العَزْمِ علَى الإقْبالِ عَلَى اللهِ سَبَبٌ لِكَيْ تُدْرِكَهُ أَلْطافُ اللهِ تَفَضُّلاً منهُ تَعالى وإحْساناً[3]، قالَ تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾[4]، وقالَ تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾[5]، وجاءَ في الحَديثِ القُدْسِي: «يا عِبادي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُوني أَهْدِكُمْ»[6]، ومَنْ عَقَدَ العَزْمَ علَى المُعانَدَةِ واتِّباعِ شَهَواتِهِ فإنَّ اللَّهَ سَيَزُجُّ بِهِ في مَزيدٍ مِنَ الغِوايَةِ والضَّلالِ، قالَ تَعالَى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾[7]، وقالَ تَعالَى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[8]، وقد جاء في الحديثِ: «يَمُوتُ العَبْدُ عَلَى مَا عَاشَ عَليهِ»[9]، وَجاءَ -أيْضاً- عن جابر بن عبد الله: «يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَى مَا

(1) يُنظر: **شرح الناظم على الجوهرة**، للقاني، ص576.
(2) التوفيق هو أنْ يخلق الله للعبد القدرةَ على الطاعة والدَّاعيةَ (الباعثةَ) إليها عن الميل النفسي [**شرح الناظم على الجوهرة**، للقاني، هامش ص545].
(3) يُنظر: **كبرى اليقينيات الكونية وجود الخالق ووظيفة المخلوق**، محمد سعيد رمضان البوطي، ص135-136.
(4) سورة محمد، الآية: 17.
(5) سورة يونس، من الآية: 9.
(6) **صحيح مسلم**، لأبي الحسين مسلم بن الحجاج (ت. 261هـ)، تحق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار ابن الجوزي، القاهرة: 2010م، ص608 برقم 2577.
(7) سورة الأعراف، من الآية: 146.
(8) سورة البقرة، من الآية: 26.
(9) نقلاً عن: **شرح الناظم على الجوهرة**، للقاني، ص557.

ماتَ عليهِ»[1]، والجَمْعُ بَيْنَهُما يَقْتَضِي أَنَّ مَنْ عاشَ عَلَى شَيْءٍ بُعِثَ عليهِ، وهوَ يُؤيِّدُهُ ما نَقَلَهُ أَحَدُ عُلَماءِ الأَنْدَلُسِ عَنْ مَشَايِخِهِ مِنْ أَنَّهُ لا يُغَيَّرُ عِنْدَ المَوْتِ إِلَّا مَنْ كَانَ عَلَى طَوِيَّةٍ سَيِّئَةٍ[2].

وَتَوْفِيقُ اللهِ للعَبْدِ هوَ العِصْمَةُ بِعَيْنِها، ويَكونُ عامّاً فَيَخْتَصُّ بهِ الأَنْبياءُ والمَلائِكَةُ، ويَكونُ خاصّاً فَيَخْتَصُّ بهِ الأَوْلياءُ والصُّلَحاءُ، ومن العُلَماء مَنْ يَرَى التَّوفِيقَ العامَّ بأنهُ مُجانَبَةُ كَبائِرِ الإِثْمِ وصَغائِرِهِ، ويَرَى التَّوْفيقَ الخاصَّ بأَنَّهُ مُجانَبَةُ الكَبائِرِ فَقَطْ[3].

خاتِمَةُ البَحْثِ:

أ - أنَّ الكَسْبَ الذي أَثْبَتَهُ الأشاعِرَةُ للعَبْدِ في أفْعالِهِ الاخْتِيارِيَّةِ لَيْسَ مَعْناهُ اخْتِراعَهُ لِتِلْكَ الأفْعالِ، كَما ادَّعَتْهُ المُعْتَزِلَةُ، ولا أنَّ قُدْرَتَهُ الحادِثَةَ أُضِيفَتْ إِلَى قُدْرَةِ اللهِ القَديمَةِ في إِيجَادِ الفِعْلِ فَوُجِدَ بِمَجْموعِ القُدْرَتَيْنِ، بَلْ مَعْناهُ مُقَارَنَةُ القُدْرَةِ الحادِثَةِ للفِعْلِ وَمُلابَسَتُها لهُ مِنْ غَيْرِ تَأْثيرٍ لَها أَصْلاً، فَلَيْسَتْ عِلَّةً ولا جُزْءَ عِلَّةٍ للإِيْجَادِ[4].

ب - أنه اعْتَمَدَ الإمامُ الأَشْعَريُّ في إِثْباتِ هَذهِ المَسْأَلَةِ عَلَى العَقْلِ؛ لأَنَّهُ أَساسُ الإيمانِ وعَلَى القَواطِعِ مِنَ النُّصوصِ التي لا تَقْبَلُ الاحْتِمالَ، مُسْتَقيًا تَسْمِيَتَها مِنَ ألفاظِ القُرْآنِ.

ت - كانَتْ نَظَريَّةُ الكَسْبِ عِنْدَ الإمامِ الأَشْعَريِّ مَذْهَباً وَسَطاً بَيْنَ مَبْدَأِ الاخْتِيارِ في العَبْدِ وبَيْنَ مَبْدَأِ تَفَرُّدِ خَالِقِيَّةِ اللهِ وفِعْلِهِ في كَوْنِهِ فَكانَتْ لَبَناً سائغاً من بينَ فَرْثٍ ودَمٍ.

(1) العاقبة في ذكر الموت، لابن الخرّاط الإشبيلي: عبد الحق بن عبد الرحمن (ت. 582هـ)، تحقيق: خضر محمد خضر، دار الأقصى، ط1، الكويت: 1986م، 1/ 202.

(2) يُنظر: **شرح الناظم على الجوهرة**، للقاني، ص557.

(3) يُنظر: السابق، ص547.

(4) يُنظر: **حاشية محمد الطالب ابن الحاج على ميارة شرح المرشد المعين لابن عاشر**، دار الفكر، ط3، مصر: 1972م، 1/ 32.